

الفصلُ الخامسُ: قُطُوفٌ مِنْ رِياضِ الشَّاكِرِينَ

وفي هذا الجزء نحاول أن نطوف بكم في رياض الشاكِرِينَ؛ لنقطف بعضاً من أزهارها العطرة ونملأ صدورنا بعبيرها الزكي؛ عله يكون زاداً لقلوبنا يأخذ بأيدينا نحو التَّأسي بهؤلاء الصفوة من النبيين والصالحين وأهل العلم والفهم.

نقف على بعض أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، فربَّ كلمة لا يعبرها الكثيرون شيئاً من الاهتمام يكون لها عظيم الأثر في قلب عليل، وربَّ فعل لأحدهم يجد فيه الضال حادياً ودليلاً.

والشَّاكِرُونَ لله -تبارك وتعالى- على مر العصور كُثُر، لا يمكن لبشر أن يحصيهم، فربهم أعلم بهم وبخاصة من لم يسجل لهم التاريخ أقوالاً أو أحوالاً، تشهد لهم وأولئك جزاؤهم عند ربهم، وهو -سبحانه- رافعهم يوم القيامة.

وأما من سجل لهم التاريخ أقوالاً وأفعالاً تشهد لهم بأنهم من الشَّاكِرِينَ فإحصاؤهم ضرب من الخيال، فالمصنّفون من الخلق كُثُر كالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وأهل العلم والفضل.

وإن كنا لا نستطيع أن نحصيهم عدداً، فحسبنا أن نشهد الله -عز وجل- أنسا نجبهم في الله، ونرجو أن يجمعنا بهم في في جنته ودار كرامته.

وفي هذا الفصل نحاول أن نذكر بعض النماذج من الأنبياء والصحابة والتابعين، وكذلك بعض الأقوال التي أثرت في الشكر تمثل عهوداً مختلفة من الزمن، وتشهد بأن الشَّاكِرِينَ موجودون في كل زمان ومكان، وبأن القلوب والألسن والجوارح

الشاكرة لربها - عز وجل - معينها لن ينضب، ولن ينعدم الخير في أمة محمد إلى أن تقوم الساعة.

نبينا محمد ﷺ

ما دمنّا نتحدث عن الشاكرين لربهم - عز وجل - فلا بد من أن تكون البداية مع سيد النبيين وإمام الشاكرين وخير خلق الله أجمعين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

والكلام عن شكره صلى الله عليه وسلم لربه - تبارك وتعالى - أمر من الصعوبة بمكان؛ لأن الشكر كان ديدنه ﷺ وكان رفيقاً له في كل حركاته وسكناته؛ فحياته كلها ﷺ كانت عبادة وشكراً وحمداً لربه - عز وجل - وليس من الإنصاف أن نتحدث عن شكره ﷺ في سطور تحوى مواقف أو كلمات.

ولكن الإنصاف أن نقرأ سيرته العطرة ونتأملها من بدايتها إلى أن اختار الرفيق الأعلى، وسنجد أنه كان شاكراً لربه في كل لحظة من حياته المباركة ولقد ذكرنا من أحاديثه الشريفة على طول هذا البحث الشيء الكثير، وما لم نوفق لذكره كثير وكثير؛ وليس أدل على كونه ﷺ سيد الشاكرين وإمام الحامدين من أن الله - عز وجل - اختار اسمه (محمد) وذكره في كتب السابقين باسم (أحمد) فهو ﷺ محمد وأحمد ومحمود أيكون ذلك مصادفة؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

إنما كان ذلك لأن الله - عز وجل - هو من اصطفاه وزكاه وجعله خير الخلق قاطبة ورباه وأدبه، وشهد له - سبحانه - بأنه على خلق عظيم، وكيف لا وهو المنوط بحمل أعظم رسالة للبشرية وهو الأسوة والقُدوة التي يجب على كل من تبع

دينه أن يقتدى بها، وليس بعجيب أو مستغرب أن يكون صلى الله عليه وسلم إمام الشاكرين؛ فهو أعلم الناس بربه تبارك وتعالى، وبأسمائه الحسنی وصفاته العلا ومن عرف ربه تمام المعرفة شكره أحسن الشكر وأتمه.

إنه صلوات ربي وسلامه عليه كان أحسن الناس صلاة فكان يصلي من الليل؛ حتى تنفطر قدماه، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر شكرًا لربه - عز وجل - وكان النبي يكثر من الصيام؛ تقريبًا لله وكان كريمًا جوادًا كالريح المرسلة يعطي بسخاء عطاء من لا يخشى الفقر وكان يملك لسانًا رطبًا بذكر الله وقلبًا عامرًا بالرضا والصبر والحمد في السراء والضراء. فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، وجمعنا يوم القيامة تحت لوائك لواء الحمد. وجعلنا ممن يسرون على دربك ويوفون بالعهد.

نبي الله إبراهيم عليه السلام

هو أبو الأنبياء و خليل الله، وكفى بتلك الخلقة شرفًا وتبها؛ إنه عليه الصلاة والسلام - كان نموذجًا حيًا جليًا لمن أدركوا مقام الشكر وقاموا بحقه أيما قيام، والله - عز وجل - أثني عليه في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل ١٢٠-١٢١].

فوصفه الله - عز وجل - بأنه كان شاكرًا لأنعمه، أي: قائمًا بشكر النعم التي أنعم الله بها عليه، فبِمَ حقق خليل الرحمن ذلك الوصف الكريم من رب العالمين؟!.

كما جاءنا ذلك الوصف في القرآن الكريم كذلك تأتينا مقومات ذلك الوصف فلقد جاء ذكر الخليل إبراهيم في مواضع كثيرة في كتاب الله - عز وجل - ومعظم هذه الآيات لو تأملناها لوجدناها تدرج تحت قوله تعالى: شاكرًا لأنعمه، ومن ذلك نذكر:

١- قال الله - عز وجل - على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء ٧٨-٨٢]

وفي ذلك إقرار من نبي الله إبراهيم بنعم ربه - تبارك وتعالى - عليه معترفًا أن أمره كله بيد الله، وأنه برغم مكانته من النبوة؛ فإنه لا يملك من أمر نفسه شيئًا والإقرار بالنعمة وإحاقها بالمنعم أول منازل الشكر.

٢- امثاله - عليه السلام - لأمر ربه وطاعته كأحسن ما تكون الطاعة؛ والطاعة لله - عز وجل - هي عين الشكر، لا سيما إن كانت هذه الطاعة فيها مجاهدة عظيمة للنفس، ويتضح ذلك في أكثر من موقف في حياة نبي الله إبراهيم عليه السلام، منها ما كان منه من التسليم لأمر ربه - تبارك وتعالى - حين أمره أن يترك زوجته وابنه؛ الذي رزقه الله إياه على الكبر في مكان البيت الحرام، وكان المكان - آنذاك - صحراء جرداء خالية من أي صورة من صور الحياة، أمره أن يتركهم في هذا المكان ويرجع دون أن يتحدث إليهم بشيء ولَّى نبي الله أمر ربه برغم ما به من ألم؛ تسليمًا بقضاء الله ورضًا بحكمه، ويقينًا بأن الله لن يضيعهم ودعاهم كما

ورد ذلك في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم ٣٧].

فنرى في هذا الدعاء كيف أن خليل الله كان همه الأكبر أن يجعل الله من ذريته من يقيم الصلاة ويعبد الله في الأرض؛ حتى حين سألته - سبحانه - أن يرزقهم من الثمرات لم يكن ذلك؛ ليأكلوا ويتمتعوا أو خوفاً عليهم من الهلكة ولكن؛ ليشكروا الله على ما رزقهم.

والموقف الثاني هو طاعته لله - تبارك وتعالى - حين أمره بذبح ولده إسماعيل - عليه السلام - وهو صبي والقصة معروفة، وهى من أعظم أنواع الابتلاء على مر التاريخ كما أنها أيضاً من أعظم المواقف التى يتجلى فيها التسليم لأمر الخالق سبحانه وتعالى.

٣- أنه - عليه الصلاة والسلام - جُمع له من المنازل والمقامات التى ترتقى بالعباد إلى مقام الشكر الشئ الكثير؛ فمقام الرضا تراه جلياً في كونه عاش إلى سن متقدمة دون ولد؛ راضياً بقضاء الله.

ومقام التوكل نجده كضوء الشمس في قصة النار التى أعدها له قومه، وألقوه فيها، ولأنه متوكل على ربه حق توكله موقناً بقدرته، فقد نجاه الله منها، ولو تحدثنا عن صبره لوجدناه حقاً من الصابرين، فكم صبر على قومه وعلى أبيه وهو يدعوهم إلى الله! وكم صبر على حرمانه من الذرية! وكم صبر على ألوان الإيذاء طوال سنوات الدعوة!.

٤- أن العبد لا يمكن له أن يحقق الشكر إلا إذا حقق التوحيد الخالص لرب الأرض والسماء، وسيدنا إبراهيم شهد له رب العالمين - سبحانه - بأنه من الموحدين المخْلِصين أصحاب الملة الخفيفة البعيدة عن الشرك؛ "إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين".^(١)

نبي الله نوح عليه السلام

سيدنا نوح - عليه السلام - أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وأبو البشرية الثاني ولقد أثنى عليه الله - سبحانه - بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣٠]

ويقول الإمام ابن القيم في هذه الآية الكريمة: [وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر، وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به؛ فإنه أبوهم الثاني فإن الله - تعالى - لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريته كما قال تعالى: "وجعلنا ذريته هم الباقين"، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر؛ فإنه كان عبدًا شكورًا].^(١)

فالله - عز وجل - جعله نموذجًا وقدوة لمن يأتي بعده إلى يوم القيامة بكونه عبدًا شكورًا، ووصفه بأنه كان عبدًا شكورًا؛ دليل على أنه كان كثير الشكر حتى غدا الشكر خلقًا ملازمًا له عليه السلام.

ومما أثر عنه -عليه السلام- ما أورده الإمام ابن القيم في كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين قال: [قال يزيد بن هارون: أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحًا -عليه الصلاة والسلام- كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعتي في جسدي، وأذهب عني أذاه فسمي عبدًا شكورًا^(١)].

نبي الله سليمان عليه السلام

الغني الشاكر الذي لم يصدده ما وهبه الله من ملك عظيم ونعم جمة عن شكر ربه والاعتراف بنعمته عليه، فنبى الله سليمان -عليه السلام- كما نعرف أوتي من الملك والعلم ما لم يؤت أحد من البشر، وأسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة فسخر له الإنس والجن والطير والرياح وعلمه لغة الطير والحيوان، وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وبرغم ذلك ولأنه نبى مرسل اجتباه ربه واصطفاه من الخلق؛ لم تشغله النعمة عن المنعم فكان دائم الشكر لربه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل ١٥-١٦].

فنجده -عليه السلام- حامدًا لربه على ما فضله به عن غيره مقرًا بفضل الله عليه، وبأنه هو واهب النعم دون حول من العباد أو قوة، وذلك في قوله: (علمنا) وقول: (أوتينا) فلم ينسب أي فضل لنفسه.

وفي قصة النملة التي خشيت على رفاقها من جيوش سيدنا سليمان فأمرهم بالدخول إلى مساكنهم؛ ففهم سيدنا سليمان لغتها بقدرة الله وتبسم ضاحكاً من قولها ثم لم ينس أن يشكر ربه على نعمته، فقال الله -تعالى- على لسان سليمان: ﴿قَبَسَمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل ١٩].

وكذلك في قصة ملكة سبأ التي وردت في القرآن بحجده شاكراً لربه مدركاً أن ما هو فيه من نعمة؛ إنما هو نوع من الاختبار والابتلاء؛ فحين أمر جنده من الإنس والجن أن يأتي أحدهم بعرش بلقيس إليه وتسابق الجميع في تلبية أمره وجاءه العرش في لمح البصر ووجده مستقراً عنده، كان أول ما فعل أن شكر ربه -عز وجل- قائلاً: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل ٤٠].

ففهم -عليه السلام- بما وهبه الله من العلم أن ما هو عليه من نعمة؛ إنما هو للابتلاء وأدرك حقيقة أن الشكر إنما يعود نفعه على صاحبه والكفر كذلك يعود ضره على صاحبه، والله غني عنا لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية.

عثمان بن عفان رضي الله عنه

الصحابي الجليل والخليفة الثالث للمسلمين وأحد العشرة المبشرين بالجنة؛ ذو النورين الذي تستحي منه الملائكة وهو مع ذلك كله: (الغني الشاكر) نعم.. إن سيدنا عثمان بن عفان كان من أكثر الصحابة مالاً وأعظمهم مكانة.

وكان من أبرز النماذج للغني الشاكر؛ الذي يؤدي شكر ماله كأحسن ما يكون الأداء، فقد جعل ماله وكل ما يملك في خدمة الدعوة ونصر الدين ومواقفه في هذا الجانب كثيرة نذكر منها:

* تجهيزه لجيش العسرة: [لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى تبوك، كان الناس في ضيق وكان الجيش مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي فطلب رسول الله التبرع من المسلمين وأعاد الطلب، فجهز عثمان الجيش حتى لم يفقد عقالاً ولا خطأماً، ويقال: إنه قد جهزه بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً، وجاء بألف دينار في ثوبه، فصبتها في حجر النبي ﷺ].

وهذا هو الحديث بنصه: فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبَّابٍ قَالَ: شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَحُثُّ عَلَى جَيْشِ الْعُسْرَةِ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ مِائَةٌ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الْجَيْشِ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ مِائَتَا بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الْجَيْشِ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ ثَلَاثُ مِائَةٍ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا

وَأَقْتَابَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْزِلُ عَنِ الْمَنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ^(١).

إنه في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- مر على الناس عام فيه قحط شديد؛ حتى كادوا أن يهلكوا وهرعوا إلى أبي بكر يسألونه، ماذا يصنعون فأوصاهم بالصبر؛ حتى يفرج الله شدتهم، وفي ذلك اليوم جاءت قافلة لعثمان بن عفان من الشام مكونة من ألف بعير محملة بالزيت والبر والزبيب، فجاءه تجار المدينة يريدون أن يشتروا منه فقال: كم تعطوني؟ قالوا: الدرهم بدرهمين، قال: أعطيت زيادة، قالوا: أربعة ثم قالوا: خمسة، وهو يقول: أعطيت أكثر من هذا؛ حتى تعجب التجار، وقالوا: ومن الذي أعطاك؟ قال: الله أعطاني بكل درهم عشرة أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين والفقراء^(٢).

*شراؤه بئر رومه، وجعلها وقفاً للمسلمين، وذلك حين رأى معاناة المسلمين من أجل الحصول على الماء في المدينة؛ حيث كانوا يشترون الماء من رجل يهودي يملك بئراً؛ تسمى بئر رومه فساومه عثمان -رضي الله عنه- واشتراها منه وتبرع بها لعامة المسلمين.

(١) الترمذي ٣٧٠٠، التاريخ الإسلامي ص ٢٢٣.

(٢) المعنى من كتاب التاريخ الإسلامي ص ٢٢٤.

عبدالله بن المبارك

نمّذج من التابعين للغنى الشاكر وقيل فيه كلام كثير؛ لكثرة صفات الخير فيه، ولكننا في هذه النبذة عنه نتوقف مع لمحات من حياته كمثال يحتذى به في الشكر، ومن ذلك:

١- [كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل (مرو) فيقولون: نصحبك يا أبا عبد الرحمن فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء.

ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة؛ حتى يصلوا إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرفها؟ فيقول: كذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا وصلوا إلى مكة فقضوا حوائجهم، قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم ويخرجهم من مكة؛ فلا يزال ينفق عليهم حتى يصيروا إلى (مرو) فإذا وصلوا إلى مرو حصّص أبواهم ودورهم؛ فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وشربوا دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صُرتَه بعد أن كتب عليها اسمه^(١).

(١) صفة الصفوة (٤ / ١٤٠).

٢- موقفه مع ذلك الشاب المدين والذي يرويهِ ابن الجوزي [سُمع المسيب بن واضح يقول: كنت عند عبد الله بن المبارك جالساً إذ كلموه في رجل يقضى عنه سبعمائة درهم ديناً، فكتب إلى وكيله إذا جاءك كتابي هذا، وقرأته فادفع إلى صاحب هذا الكتاب سبعة آلاف درهم، فلما ورد الكتاب على الوكيل وقرأه التفت إلى الرجل فقال: أي شيء قضيتك؟ فقال: كلموه أن يقضى عني سبعمائة درهم ديناً، فقال: قد أصبت في الكتاب غلطاً ولكن اقعد موضعك؛ حتى أجرين عليك من مالى، وأبعث إلى صاحبي فأشاوره فيك.

فكتب إلى عبد الله بن المبارك: أتاني كتابك وقرأته وفهمت ما ذكرت فيه وسألت صاحب الكتاب فذكر أنه كلمك في سبع مائة درهم، وها هنا سبعة آلاف؛ فإن يكن منك غلط فاكتب إلي؛ حتى أعمل على حسب ذلك؛ فكتب إليه إذا أتاك كتابي هذا وقرأته وفهمت ما ذكرت فيه فادفع إلى صاحب الكتاب أربعة عشرة ألفاً، فكتب إليه إن كان على هذا الفعل تفعل فما أسرع ما تباع الضيعة، فكتب إليه ابن المبارك: إن كنت وكيلى فأنفذ ما أمرك به، وإن كنت أنا وكيلك فتعال إلى موضعي؛ حتى أصير إلى موضعك فأنفذ ما تأمرني به^(١).

علي بن الحسين

هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- المشهور (بـزين العابدين) وكان ممن عرفوا بعبادتهم وورعهم وحكمتهم.

(١) صفة الصفوة (٤ / ١٤٣).

ومن أقواله التي تعبر عن شكره لربه عز وجل:

كان يقول: [صدقة الليل تطفئ غضب الرب وتنور القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة^(١)].

وكان -رضي الله عنه- إذا أتاه السائل رحَّب به وقال: [مرحبًا بمن يحمل زادي إلى الآخرة^(٢)].

وكان يقول: [إني لأستحي من الله -عز وجل- أن أرى الأخ من إخواني، فاسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا^(٣)].

وكان -رضي الله عنه- جوادًا كثير الصدقة والإنفاق في سبيل الله، ولم يكن يتصدق بماله فقط بل وبعرضه -أيضًا- ومما ورد في ذلك:

أنه كان إذا خرج من بيته قال: اللهم إني أتصدق اليوم أو أهب عرضي من استحلته^(٤).

ومن ذلك أنه كان خارجًا من المسجد فلقى رجل فسبه، فثارت إليه العبيد والموالي، فقال على بن الحسين: مهلاً عن الرجل، ثم أقبل على الرجل فقال: ما سُرَّ عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى عليه

(٢) البداية والنهاية (٩ - ١٠٥/١٠)

(٢) صفة الصفوة (٢ / ٩٥).

(٣) البداية والنهاية (٩ - ١٠٠ ص ١٠٦).

(٤) البداية والنهاية (٩ - ١٠٠ ص ١٠٧).

خميسة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول^(١).

أما عن إنفاقه فحدث ولا حرج؛ فإنه كان شديد السخاء وكان أكثر ما يتصدق بالليل؛ حتى أنه يروى عن محمد بن إسحاق قال: [كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين كان معاشهم؛ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون بالليل^(٢)].

وعن عمرو بن ثابت قال: لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سُود في ظهره فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جُرْب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء المدينة^(٣).

[ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعود فبكى ابن أسامة فقال له: ما يبكيك؟ قال علي دين، قال: وكم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، فقال: هي علي^(٤)].

[وعن سفيان قال: أراد علي بن الحسين الخروج في حج أو عمرة؛ فاتخذت له سُكينة بنت الحسين سُفره أنفقت عليها ألف درهم أو نحو ذلك، وأرسلت بها إليه فلما كان بظهر الحرّة أمر بها فقسمت على المساكين^(١)].

(١) صفة الصفوة (٢ / ١٠٠).

(٢) صفة الصفوة (٢ / ٩٦).

(٣) صفة الصفوة (٢ / ٩٦).

(٤) البداية والنهاية (٩ - ١٠ ص ١٠٥).

وكان من شكره -أيضاً- أنه كان يعفو في مواقف كثيرة يصعب على جل الناس أن يجاهد نفسه فيها، وفي ذلك جانب عظيم من الشكر لله -عز وجل- حين يقابل المرء الإساءة من الناس بالإحسان والابتلاء بالشكر لله -عز وجل- ومن ذلك نذكر موقفين عظيمين:

قال عبد الرازق: سكبت جارية لعلی بن الحسین عليه ماء؛ ليتوضأ فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشججه فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله يقول: [والكاظمين الغيظ] فقال: قد كظمت غيظي، قالت: [والعافين عن الناس] فقال: عفا الله عنك، فقالت: (والله يحب المحسنين) قال: أنت حرة لوجه الله تعالى^(١).

[عن رجل من ولد عماد بن ياسر قال: كان عند علي بن الحسين قوم فاستعجل خادماً له بشواء كان له في التنور، فأقبل به الخادم مسرعاً، وسقط السفود من يده على بُني لعلی بن الحسین أسفل الدرجة؛ فأصاب رأسه فقتله، فقال علي للغلام: أنت حر لم تعمده^(٢) وأخذ بجهاز ابنه^(٣)].

فمن يقدر على التعامل مع ذلك الابتلاء الشديد بقتل ابنه أمام عينيه بالعفو عن قاتله بل و يطلقه لوجه الله؛ لأنه لم يتعمد قتله قربي إلى الله، وكبحاً لهوى النفس واستحضاراً لقدرة الله -عز وجل- عليه وطمعاً في عفوه.

(١) صفة الصفوة (٢ / ٩٦).

(٢) البداية والنهاية (٩ - ١٠ ص ١٠٧).

(٣) لم تتعمد ذلك.

(٤) صفة الصفوة (٢ / ١٠٥).

[وروى الطبراني بإسناده عنه: أنه كان جالساً مع جماعة فسمع داعية في بيته فتنهض فدخل منزله، ثم رجع إلى مجلسه فقبل له: أمن حدث كانت الداعية؟ قال: نعم فعزوه وتعجبوا من صبره فقال: إنا أهل بيت نطيع الله -عز وجل- فيما نحبه ونحمده على ما نكره^(١)].

أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها

كانت -رضي الله عنها- تشتهر بين أمهات المؤمنين بسخائها وكرمها وكثرة تصدقها وبذلها، ولقد شهدت لها أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنهما- بذلك فقالت: كانت زينب بنت جحش هي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فعصمها الله -عز وجل- بالورع ولم أر امرأة أكثر خيراً وأكثر صدقة وأوصل للرحم وأبذل لنفسها في كل شيء يتقرب به إلى الله -عز وجل- من زينب^(٢).

[وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: أولكن يتبعني أطولكن يداً، قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- غمد أيدينا في الحائط نتناول فلم نزل نفعل ذلك؛ حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا يداً؛ فعرفت أن النبي أراد بطول اليد

(١) البداية والنهاية (٩ - ١٠ ص ١١٤).

(٢) صفة الصفوة (٢ / ٤٨).

الصدقة، وكانت امرأةً صناعاً وكانت تعمل بيدها وتتصدق به في سبيل الله عز وجل^(١).

ومما يروى عن شدة كرمها وكثرة إنفاقها في سبيل الله: [عن برزة ابنة رافع قالت: لما جاء العطاء بعث عمر إلى زينب بنت جحش بالذى لها؛ فلما دخل عليها قالت: غفر الله لعمر لغيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني، قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله واستترت دونه بثوب، وقالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً فصبوه واطرحوا عليه ثوباً فقالت لي: ادخلي يدك فاقبضى منه قبضة، فاذهبي إلى آل فلان وآل فلان من أيتامها وذوي رحمها فقسمته؛ حتى بقيت منه بقيسة، فقالت لها برزة: غفر الله لك والله لقد كان لنا في هذا حظ، قالت: فلكم ما تحت الثوب، قالت: فرفعنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، قال: فماتت^(٢)].

فرحم الله أم المؤمنين زينب بنت جحش ورضي الله عنها وعن أمهات المؤمنين؛ اللاتي شربن من معين النبي ﷺ وتعلمن من أخلاقه الكريمة، وطهر الله -عز وجل- قلوبهن وزكى الإسلام أنفسهن فكن خير مثال يحتذى على مر العصور، ونسأل الله -عز وجل- ألا يحرمنا رؤيتهم في الجنة، وأن يرزقنا صحبتهم في الآخرة.. آمين.

(١) متفق عليه: البخارى ١٣٥٤، مسلم ٢٤٥٢.

(٢) صفة الصفوة (٢ / ٤٨).

موقف عمر بن عبد العزيز عند وفاة ولده

الخليفة العادل التقى عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه- خامس الخلفاء الراشدين من عرف عنه الورع والتواضع والرحمة والرضا بقضاء الله نراه يوم مات ابنه عبد الملك وكان يحبه حباً كثيراً خلقه الحسن وتقواه لربه -عز وجل- نراه برغم حزنه الشديد على قرّة عينه لا يسخط ولا يجزع ولكنه يصبر ويرضى بل ويشكر ربه يقيناً منه أن ما قدره الله -عز وجل- فيه الخير لا محالة.

[عن زياد بن أبي حسان أنه شهد عمر بن عبد العزيز حين دفن ابنه عبد الملك استوى قائماً وأحاط به الناس فقال: والله يا بني لقد كنت برّاً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك، ولا والله ما كنت أشد سروراً ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى المنزل الذى صيرك الله إليه فرحمك الله وغفر لك ذنبك وجزاك بأحسن عملك، ورحم كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب؛ رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره الحمد لله رب العالمين ثم انصرف^(١).

أقوال ماثورة

[عن سفيان قال: قيل لأبى حازم ما مالك؟ قال: ثقتى بالله -عز وجل- ويأسى مما فى أيدي الناس^(٢)].

[محمد بن عبيد قال: إن بعض أهل الحجاز قال: قال أبو حازم كل نعمة لا تقرب من الله -عز وجل- فهى بلية^(٣)].

(١) صفة الصفوة (٢ / ١٣٠).

(٢) صفة الصفوة (٢ / ١٥٦).

وعن عمر بن سعيد بن حسين عن أبي حازم قال: إذا رأيت الله -عز وجل- يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره^(٢).

قال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً^(٣).

[قال علي بن الجعدى: سمعت سفيان الثوري يقول: "إن داود -عليه الصلاة والسلام- قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة^(٤)].

[قال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت^(٥)].

عن أنس -رضي الله عنه- قال سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سلم على رجل فرد عليه السلام، فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال: هذا ما أردت منك^(٦).

[مر وهب بمبتلى أعمى مجزوم مقعد عريان به وضع وهو يقول: الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها،

(١) صفة الصفوة (٢ / ١٥٧).

(٢) صفة الصفوة (٢ / ١٥٧).

(٣) عدة الصابرين ١١٩.

(٤) عدة الصابرين ١١٩.

(٥) عدة الصابرين ١٢١.

(٦) عدة الصابرين ١٢٧.

فقال له المتلى: ارم بصرك إلى أهل المدينة؛ فانظر إلى كثرة أهلها، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري^(١).

[ذكر على بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن يختصر أتى بدانيال فأمر بحبسه في جب وأضرى أسدين، ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام، فوجده قائماً يصلى والأسدان في ناحية الحب، لم يعرضا له، فقال له: ما قلت حين دفع عنك؟ قال: قلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاتاً^(٢).

ومن أجمل ما قيل قول بعضهم: [عندي من بره ما ملك الاعتذار بأزمته وقبض السنة أمراء الكلام وأئمة؛ عندي مبارٌ أعجزني شكرها كما أعوزني حصرها، شكره شأؤٌ بعيد لا تبلغه أشواطى ولا أتلافى التفريط فى حقه بإفراطى.

إحسانه يعيد العرب عجمًا والفصحاء بكما. قد زحمتى من مكارمه ما يُحصر عنه المبين ويصحبه العيُّ وبئس القرين^(٣).

قال أعرابي:

رهنّت يدي بالعجز عن شكر بره وما فوق شكرى للشكور مزيد

(١) عدة الصابرين ١٣٩.

(٢) عدة الصابرين ١٤٠.

(٣) كتاب: الأنس، سمير الشبخاني (١ / ٤٥٩).

ولو كان شيئاً يستطاع استطاعته ولكن ما لا يستطاع شديداً^(١)

تم بعون الله وتوفيقه

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

أميرة نبيل العماوي

المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- مختصر تفسير ابن كثير
- ٣- فتح الباري
- ٤- صحيح مسلم
- ٥- إحياء علوم الدين
- ٦- البداية والنهاية لابن كثير
- ٧- شرح رياض الصالحين لابن العثيمين
- ٨- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم
- ٩- مدارج السالكين لابن القيم
- ١٠- الفوائد لابن القيم
- ١١- الداء والدواء لابن القيم
- ١٢- مفتاح دار السعادة لابن القيم
- ١٣- طريق المحجرتين، وباب السعادتين لابن القيم
- ١٤- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم
- ١٥- صفة الصفوة لابن الجوزي
- ١٦- التبصرة لابن الجوزي

- ١٧- بستان الواعظين لابن الجوزي
- ١٨- تلبس إبليس لابن الجوزي
- ١٩- المعجم الوجيز
- ٢٠- مختار الصحاح
- ٢١- البحر الرائق في الزهد والرقائق أحمد فريد
- ٢٢- مختصر منهاج القاصدين لأحمد بن قدامة المقدسي
- ٢٣- معارج القبول للحافظ بن أحمد الحكمي
- ٢٤- رهبان الليل د / سيد العفاني
- ٢٥- التاريخ الإسلامي محمود شاكر
- ٢٦- علو الهمة محمد أحمد إسماعيل المقدم
- ٢٧- الرضا عن الله للحافظ بن أبي الدنيا
- ٢٨- كتاب الأنس سمير شيخاني